

أمام من يمثلون روما وسيدها.

ولكن لماذا أتوا بيسوع إلى حنّان أولاً؟ أهى عاطفة احترام يُبديها قيافا، وهو المسؤول الأول لدى روما نحو حميه؟ أم أن حنّان أراد لنفسه التدخل في هذه القضية، وغايتها الحكم على مواطن يهودي بتهمة ثورة على القيصر، لتعزيز مركزه لدى السلطات الرومانية العليا؟ قد يكون الأمر هذا أو ذاك.

دخل يسوع دار حنّان، وربما كانت الدار هي نفسها التي يسكنها قيافا رئيس الكهنة، ومثل أمامه. إلا أن هذا اكتفى بان يروي غليل فضوله أو نغمته من مشهد نبي الجليل مكبلاً بالقيود، مهاناً، ذليلاً أمام عظمته، ولم يتخذ أي إجراء قضائي ولو غير رسمي، وترك مجال المسؤولية حراً وسيعاً أمام صهره قيافا.

وكيف لا يقف هذا الموقف ولا سيما حيال رجل غير عادي وسياسي داهية كحنّان، تعلم على حسابه، في الأحوال الدقيقة جداً التي يعيشها كبار إسرائيل منذ الفتح الروماني. لقد ترك حنّان يسوع موثقاً وأرسله إلى رئيس الكهنة قيافا.

ويشير يوحنا إلى أن قيافا هذا هو الذي اقنع أرباب المحفل وقادة الرأي في إسرائيل أن مصلحتهم تقضي بان يموت واحد من الشعب لئلا تتعرض الأمة كلها للدمار.

يوسف قيافا شغل المنصب ثماني عشر سنة، من سنة 18 إلى سنة 36 للمسيح، ثم عزله المفوض الإمبراطوري فيبتيليوس، وأراح من وجوده شعباً أن كثيراً تحت قبضته وقبضة حميه حنّان. عند استجواب يسوع، سأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. فأجاب يسوع: لقد كلمت العالم جهراً، وعلمت دائماً في الجامع والهيكل حيث يجتمع كل اليهود، وما قلت شيئاً في الخفية. فلم تسألني؟ سل الذين سمعوا عما قلته لهم، إنهم يعرفون ما قلت.

أحس قيافا، عند هذا الجواب، أن يسوع على حذر شديد. وان القضية لن تسير بالسهولة التي يتوخاها. فقد حسب الأسير مضعضع النفس، خائر القوى، محطّم الأعصاب، بعد أن قبض عليه وهرب تلاميذه بدون أي مقاومة، فينهار لدى الصدمة الأولى. وأظهر رئيس الكهنة امتعاضه من جواب لم يكن لينتظره، فلطم يسوع واحداً من الشرط كان قائماً هناك، وقال: وهكذا تجيب رئيس الكهنة؟ فنظر إليه يسوع وأجابه في هدوء وسمو يتعديان كل كمال بشري: إن كنت تكلمت بسوء، فبين ابن هو السوء، وإن بصواب، فلم تضربني؟ رأى قيافا، أمام موقف يسوع، انه لا بد له من جلسة تُعقد رسمياً وبحسب الأصول القضائية، من حيث اكتمال أعضاء المحفل، ليُصار إلى تحديد الدعوى، وسماع الشهود، وإثبات التهمة، والحكم بالموت. فاسلم الأسير إلى حرسه، وأرجأ الجلسة إلى صباح الغد.